

Representations of Jerusalem in the Eyes of Western Travelers: The Travels of Chateaubriand and Lamartine to Jerusalem as Samples¹

Khamsa Allaoui

Universite des Freres Mentouri, Algeria

allaoui_khamsa@yahoo.fr

Arrival date: 2017-11-04 Acceptance date: 2018-03-29

Abstract

This study to unveil the image of Jerusalem in the writings of western travelers as part of their own perceptions of the Orient, particularly Lamartine and Chateau-Briand. We will analyze the two travels understanding of the East as try to figure out its mystery, the traditions and mentalities of its inhabitants as well as their various languages, narrative techniques, and religious conflicts. We hope that this allows as to emphasize that the traveller's basic concern is to objectively depict an image different from the western stereotypical one of the East.

We believe the transfer process cannot be a case of interpretation or representation as both are affected by bias, nor can it be a matter of projection, which attempts to find differences rather than similarities between Western and Eastern cultures.

Keywords: Image of Jerusalem, Travel east, Travel literature, Chateaubriand, Lamartine,

تمثلات القدس في عيون الرحالة الغربيين

رحلة شاتوبريان ولامارتين أ نموذجاً

بقلم /أ.د.الخامسة علاوي

قسم الآداب واللغة العربية

جامعة الاخوة منتوري - قسنطينة_ الجزائر

allaoui_khamsa@yahoo.fr

الملخص:

نروم من خلال هذه الورقة البحثية الكشف عن المخزون التصوري للرحالة الغربيين الذين زاروا القدس وكانت لهم رؤيتهم الخاصة لشرقنا العربي الإسلامي، وعلى رأسهم شاتوبريان ولامارتين حيث نقوم بعرض واسع لرحلتي هذين الأديبين، وعملية إدراكهما وفهمهما للشرق وبجثهما الدؤوب عن فك غموضه وإبهامه وعاداته وعقليته ضمن اللغة والتاريخ والخطابة الغربية وعمليات التماحك الديني. آملين من وراء ذلك التأكيد على أنّ الهّم الأساس الذي يوجّه الرحالة ويصوغ عمله هو عملية النقل المنظم والمباشر للصورة المخالفة والمعارضة للثقافة التي أنتجت، بل وإيماناً منّا أنّ عملية النقل هذه بحد ذاتها لا يمكنها أن تكون حالة من

¹ This work is an enlarged version of the text presented in the "Jerusalem Symposium in Modern World Literature" held at the University of Jordan from 21-23 March 2017.

التأويل أو التمثيل الذي يجد مبرره في نظام من التعسف والتحيّز، أو الإسقاط الذي يسير وفق سلسلة من العناصر أهمها: إما إزاحة العناصر المتقاربة بين الثقافتين، أو محاولة التقاط العناصر المتباعدة لإيجاد نقاط التعارض والاختلاف .

الكلمات المفتاحية: أدب الرحلات، صورة القدس، الرحلة إلى الشرق .

يا قدس يا مدينة تفوح الأنبياء
يا أقصر الدروب بين الأرض والسماء
يا قدس يا منارة الشرائع
يا طفلة جميلة محروقة الأصابع
حزينة عيناك يا مدينة البتول
يا واحة ظليلة مرّ بها الرسول
حزينة حجارة الشوارع
حزينة مآذن الجوامع
يا قدس يا جميلة تلتف بالسواد
إلى أن يقول:
يا قدس يا مدينة الأحزان
يا دمة كبيرة تجول في الأجفان
من يوقف العدوان؟

" نزار قباني "

بهذه الكلمات الطافحة بأسمى دلالات العشق للمدينة التي باتت على قول الشاعر "أبنية حجارتها اقتباسات من الإنجيل والقرآن" نفتتح هذه الورقة بحديث ضاف رأينا أن يستقطب فضاء المغامرة وجمالية الكتابة

2- عبّيد، محمد صابر : المغامرة الجمالية للنص القصصي، عالم

الكتب الحديث، إربد - الأردن، ط1، 2010، ص1

3- نفسه، نفسها .

4- نفسه، نفسها .

الأخر هو الشرق، وتلك الأنا هي الغرب؟ سؤال يفتح الباب على مصراعيه أمام ضرورة الوقوف عند طبيعة هذه العلاقة دون إهمال أثرها على كتابات الرحالين، خاصة إذا علمنا أنّ هذه العلاقة لم تكن "بريئة"، إنما علاقة من علاقات القوة والسلطة والسيطرة وبدرجات متناقضة من الهيمنة المعقدة والمتشابكة¹⁰.

علاقة الاستشراق بأدب الرحلات:

إذا كان الشرق كما اقترحه تيبوديه هو "البلاد الحارة بأجمعها، البلاد التي تمتد من الهند إلى مراكش، أما العناصر التي تؤلفه سواء أكانت من الخيال أم من الواقع فهي جد معقدة بإثارتها وجاذبيتها، إنّه وجه الطبيعة الذي لا تُقدّم لنا أوروبا بديلاً عنه: إنّه الصحراء حيث يتقاسم الشعر بعضاً من عناصرها مع شعر البحر، إنّه سحر

تجذير الوعي به "فضلّ" عائماً ملتبساً بين نعوت مستلهمة من حقول أخرى، مشدوداً إلى مرجعيات الأدب أو التاريخ أو الجغرافيا أو الإثنوغرافيا دون القدرة على النظر إلى الرحلة نصّاً منفتحاً في كليته على أشكال وحقول تتفاعل لتشيّد إدراكاً ورؤية وتعبيراً⁵ مغايراً يعيد المكان فيه تشكيل نفسه ضمن التشكيل العام للرحلة، هذا النوع "الذي يفسح المجال أمام ترسيخ تقليد الموازنة بين فضاءين وقيمتين وصورتين، حتى في الحالات التي تقتصر فيها الرحلة على مجرد الوصف للعالم الجديد؛ لأنّ هذا الوصف يخضع عن وعي أو لا وعي لمنظور وثقافة الواصف الذي يعمل على تحويل لغوي و مفهومي للمنظورات"⁶، وربما هذا ما يجعل "الرحلة، نصاً وكتابة، (...) بؤرة جامعة ومتحولة لا تقف عند أجوبة شافية بقدر ما تفرش أرضية موسعة لأسئلة مقلقة"⁷، تزداد حدتها كلما كانت وشائج هذا النص "متعاقبة مع أشكال دينامية تلمّع سرود التجربة وتحفّزها وتطعمها من أجل معرفة الذات باعتبارها وسيلة للمعرفة والانفتاح على العالم"⁸، أو بعبارة أخرى "لأنّ المعرفة بالذات تتأصل عن طريق المعرفة بالآخر، والحديث عن الآخر يضمن حديثاً عن الذات، فالرحالة عندما يخرج من ذاته إلى الآخر يرجع إلى ذاته مرة أخرى لتمثيل النحن أمام الآخر"⁹. فماذا لو كان هذا

ملتبسة بحقّ فديدور كان لا يفهمها إلا بوصفها بيزنطة أو فلسفة غنوصية أو زرادشتية! وكانت تمثّل لديه ما يمثّله التراث الإشرافي والصوفي معاً، وهذا ما جعل واحدة من المعاجم الشهيرة في القرن التاسع عشر (بواكير القرن التاسع عشر) تكترس عموداً كاملاً لتفسير الالتباس الذي تضمه كلمة (Orient)، وقد ذكر المعجم ذاته وهو معجم لاروس، أنّه ليس هناك من كلمة فسرت بشكل شيء تضارع ما كان لكلمة شرق. لذا كان الرحالة حتى الثلث الأول من القرن التاسع عشر لا يعنونون رحلاتهم ب(رحلة إلى الشرق) على الإطلاق إنما كانوا يعنونون باسم البلد الذي رحلوا إليه مثل (رحلة إلى مصر)، (رحلة إلى فلسطين)، (رحلة إلى سوريا)، أو كانت الرحلات تحمل اسماً تجارياً مثل (Levant) والتي تعني الشرق بالمعنى التجاري، أطلقه التجار على المناطق الشرقية المتاخمة لحوض البحر الأبيض المتوسط". راجع: جوردا، بيير: الرحلة إلى الشرق - رحلة الأدباء الفرنسيين إلى البلاد الإسلامية، ترمي عبد الكريم وعلى بدر، الأهالي للتوزيع، دمشق - سوريا، ط1، 2000، ص14.

¹⁰ - المرجع نفسه، ص6.

⁵ - حليفي، شعيب: الرحلة في الأدب العربي (التجنيس، آليات الكتابة، خطاب المتخيّل)، دار القرويين، الدار البيضاء - المغرب ط2، 2003، ص36.

⁶ - نفسه، ص50.

⁷ - نفسه، ص51.

⁸ - نفسه، نفسها.

⁹ - الساورى، بوشعيب: الرحلة والنسق - دراسة في إنتاج النص الرحلي، دار الثقافة، الدار البيضاء - المغرب، ط1، 2007، صص166-167.

* - كانت مفردة الشرق تشير نسبة إلى الأنسلوكويديين الفرنسيين إلى مفاهيم فلكية أكثر مما تشير إلى مفاهيم أنثروبولوجية، وكانت كلمة

الإسلام وديكور دين يتناسب مع المناخ والإنسانية تناسباً تاماً¹¹.

والسؤال المطروح هنا هل هذه هي صورة الشرق التي وجدناها في كتابات الأدباء الغربيين لاسيما إذا علمنا أنّ هذا الشرق قد احتل مكان الصدارة في أديهم؛ حيث تجلّى في الروايات والمسرحيات والقصائد التي كتبت آنذاك؟

وإجابة منا على هذا السؤال نقول: "لقد أدت الحملات الصليبية إلى تواتر الأخبار عن الشرق وارتسام عدد من التصورات المبالغ فيها والمنسجمة مع المعطيات الثقافية والمحلية. فكان من النتائج المباشرة لذلك ظهور عدد من القصص التي عُرفت بـ(الرومانس)، إضافة إلى أعمال شعرية ملحمية يمكن اعتبارها إرهابات لاستشراق أدبي سيستمر حتى القرن العشرين. ولعل من اللافت للنظر أن تكون تلك الأعمال المتولدة نتيجة للاحتكاك بالشرق العربي الاسلامي من أوائل ما أنتج من الأدب الأوروبي (إذا استثنينا الأديين اليوناني والروماني باعتبارهما سابقين لما يعرف الآن بأوروبا). وقد انقسمت تلك الأعمال إلى قسمين رئيسين هما:

الإسلامي بوصفه عدواً وثنياً يعبد آلهة منهم الرسول محمد عليه الصلاة والسلام الذي وصلهم أنّ اسمه (ماهون). يلي ذلك إبان عصر النهضة عدد من الملاحم الإيطالية التي حملت المضمون الأسطوري نفسه الذي نجده في أنشودة رولاند، وكذلك في الأدب المسرحي الأوروبي كما في أعمال شكسبير (...). وحين جاء القرن الثامن عشر كانت التصورات عن الشرق تدخل أعمالاً قصصية غدتها ترجمة الفرنسي جالان لـ(ألف ليلة وليلة) 1704م. واستمر الحال في الآداب الأوروبية في القرن التاسع عشر والعشرين¹²، حيث حاز الفن القصصي بنوعيه الرواية والقصة القصيرة على نصيب الأسد من تصوير الشرق وتوظيفه فنياً، إما "باستلهام أعمال شرقية، مثل ألف ليلة وليلة، أو بالتوجه مباشرة إلى الشخصيات والأجواء التي يرى الكتاب أنّها تصوّر عالم الشرق على نحو ما. وكثيراً ما كانت هذه العناصر تجتمع في عمل واحد"¹³، وكل ذلك يجعلنا نجرم بأن صورة الشرق في

12- الرويلي، ميجان، البازعي، سعد : دليل الناقد الأدبي، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية، المملكة العربية السعودية، ط1، 1995، ص ص 23-24.

* - مثلما حدث في رواية الكاتب الأمريكي جون بارث، التي كان عنوانها (الرحلة الأخيرة لشخص ما في البحار 1991)، التي جمعت قدراً هائلاً من المعلومات المتصلة بالشرق في قالب تمترج فيه أجواء حكايات السندباد المغرقة في الخرافة بالأحداث السياسية التي عاشتها منطقة الشرق الأوسط في الفترة التي سبقت صدور الرواية . ويذهب صاحبها كتاب (دليل الناقد الأدبي) إلى أنّه من خلال رواية بارث "يتضح جانب مهم من جوانب الاستشراق يمكن بمقتضاه القول بأننا إزاء خطاب أدبي بالمعنى الذي حدده الفيلسوف الفرنسي ميشال فوكو واستعمله إدوارد سعيد في دراسته الاستشراق. راجع الصفحة ص 25 من الطبعة الأولى .

13- المرجع نفسه، ص ص 24-25.

- الأعمال القائمة على الغرائبية والفانتازية، التي تصوّر الشرق بصور يغلب عليها عنصر الإثارة والتشويق غير الواقعي.
- والأعمال التي تعكس الروح القتالية أو التعبوية، كما في الملاحم. ولعل أشهر هذه الملاحم (أنشودة رولاند) التي تعود إلى مطلع القرن الثاني عشر الميلادي، والتي تصوّر مشاهد من الصراع الاسلامي المسيحي في إسبانيا مبرزة الجانب

11- نفسه، ص 56.

تميشها وتحجيمها"¹⁷؛ لا لشيء إلا لأنّ الانشغال بالمعايير الغربية حول الغرب في مقابل الآخر أو الشرق تعرقل الفهم الموضوعي للمجتمعات التقليدية أو غير الغربية مما حدا بالأثروبولوجي الشهير جاك جودي أن يقول: لقد فُشِلَتْ في أن تعطي اعترافاً كاملاً لإنجازات المجتمعات الأخرى المتأدبة بسبب الانشغال بتفرد الغرب، وهذا النمط من التفكير يكون متأصلاً في التقسيم (نحن/هم) الذي يكون في جوهره ثنائياً وعنصرياً¹⁸.

وهكذا أضحى من نافلة القول التأكيد على أنّ التصورات الغربية التي قدمها الاستشراق عن الشرق، وعن العالم الإسلامي بصورة خاصة أسهمت في التعبير عن الخلفية الفكرية والأيدولوجية للصراع الحضاري بينهما¹⁹، هذا الذي بدا جلياً وواضحاً في خطاب الرحلة، بما هو الوعاء الأقدر على نقل مواد شتى (إثنوجرافية²⁰، تاريخية، جغرافية، وأدبية...)؛ لأنّ أدب الرحلات في الأصل هو "نوع من المعاينة والفحص والاختبار أو الإخبار والتقصي"²¹، ولأنّ "الهم الأساس الذي يوجه الرحالة ويصوغ عمله هو عملية النقل المنظم والمباشر للصورة

الكتابات الأوروبية كانت صورة "الشرق المتخيل المتأثر بألف ليلة وليلة، الشرق السري والغامض الذي تسيطر عليه القدرية والاستيهامات الجنسية والمغامرات السحرية"¹⁴. وعليه ف"الشرق الذي خلقه الغرب في أدبه ليس شرقاً حقيقياً، إنما هو منطقة لتصعيد الخيال الغربي عبر القرون المختلفة و وسيلة لتفجير صورة ثابتة منمطة، والتعامل معها إلا أنّه يكشف عن المخزون التصويري الكائن في النظام الذي شكّل الثقافة الغربية ذاتها، فالشرق هو ملجأ للكائنات الغربية والشبحية وهو صورة ثابتة خلقها المخيال الثقافي السياسي الغربي نتيجة لقرون محتدمة من الصراع والمقاومة والمجادلة، وربما تفجرت بشكل أساسي في القرن الثامن عشر"¹⁵، هذا القرن الذي بلغت فيه الحركات الاستشراقية أوجها، وهنا نتوقف لنؤكد أنّه إذا كان الاستشراق هو بشكل عام تعبير يدل على الاهتمام المنظم بالشرق بما هو "رمز أو نسق رمزي يشير إلى أسلوب حياة ونمط تفكير له خصائصه المميزة"¹⁶، فإنّ "الإرث المذموم للاستشراق ينعكس في قدرته على صنع الثنائية الثقافية وخلق الآخر ووصمه وثقافته بنعوت سلبية، وهي ثنائية شمولية من إنتاج بعض النخب الثقافية الغربية التي تنطلق ليس من مجرد الجهل بمكونات ثقافة الآخر بل العمل على

17- المرجع نفسه، ص 205.

18- المرجع نفسه، ص 206.

19- المرجع نفسه، ص 207.

20- الإثنوجرافيا: "كلمة معربة تعني الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة ومجموعة التقاليد، والعادات والقيم، والأدوات والفنون، والمأثورات الشعبية لدى جماعة معينة أو مجتمع معين، خلال فترة زمنية محددة". راجع: محمد فهم، حسين: أدب الرحلات، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت، العدد 138، 1989، ص 49.

21- الرحلة إلى الشرق، ص 8

14- دي لامارتين، ألفونسو: مقدمة كتاب رحلة إلى الشرق، تر. جمال شحيد- ماري طوق، منشورات دار نشر هاشيت وشركائها -باريس، ط 1، 2006، ج 1، ص 7.

15- نفسه، ص 12.

16- الأسود، السيد: الاستشراق الجديد - جدلية الثنائية الثقافية بين الغرب/الشرق والغرب/الإسلام، مجلة ثقافات، تصدر عن جامعة البحرين، 2008، ص 207.

وإذا علمنا أنّ القرن التاسع كان قرن الرحلات بلا منازع، "بل إنه القرن الذي يضم أكبر عدد من الإنتاج الثقافي والأدبي الذي يتركز بالأساس على يوميات الرحلة وخطاها"²⁵، أدركنا إلى حد بعيد حجم الخطر الذي كانت تشكله الرحلة الغربية إلى الشرق خاصة من حيث إبرازها للصورة المشوهة للشرق والشرقي، فقد كان الشرق في رحلة ريتشارد بورتون (RICHARD BURTON) "مجالا محرما، حيث النساء جوارٍ يمنحن ملذات جنسية"²⁶، أما الشرقي في نظره فهو "إنسان كسول ولا مبال، وقذر، ومدمن، ومعروف بجبنه في أوقات الخطر، في حين أنّه يصبح وقحا عندما لا يكون ثمة ما يخشاه، وليس لديه أية فكرة عن الصدق"²⁷، وهي اتهامات خطيرة لا تقل في خطورتها عن قولهم واصفين أخلاق المسلمين إنّ "كلّ الشرقيين يعدّون مولعين بالنقااص والآفات الأكثر انحطاطا. ويعدّ العرب أناسا شهوانيين وفُساقا حتى داخل الأماكن المقدسة في الإسلام، وهذا ما يعدّ تدنيسا للمقدسات وانتهاكا للحرمان. ففي حوالي 1820 وسم بعض الرحالة العربي بالشذوذ الجنسي، تماما كما أسندوا إلى الإسلام صفة اللا أخلاقية، مؤكداً أنّه ليس الدين هو الذي يريّ الإنسان"²⁸. فلا ريب أنّ كل هذه الروايات وغيرها كثير جاءت لتكرس صورة مشوهة للشعوب الشرقية بدءاً من لون البشرة وانتهاء عند صفة البربرية والهمجية والحيوانية التي سُموا بها الإنسان

المخالفة والمعارضة للثقافة التي أنتجته"²²، فإنّ عملية النقل هذه لا يمكن أن تكون خالية من التأويل أو التمثيل الذي يجد مبرره في نظام من التعسف، والتحيّر أو الإسقاط الذي يسير على وفق سلسلة من العناصر هي باختصار: إما إزاحة العناصر المتقاربة بين الثقافتين، أو محاولة التقاط العناصر المتباعدة وحسب، وذلك بالبحث الحثيث لإيجاد نقاط التعارض والاختلاف، وهذه الأخيرة هي إحدى الوسائل الضرورية لعملية الكشف والفحص وتقديم صورة تقريبية عن الآخر، الذي باتت صورته إما مبنية بشكل قبلي داخل اللاوعي الجمعي للثقافة، وإما قائمة على أساس اختيار العناصر المطابقة للعناصر القبلية ومحاولة تقريبها وفرضها بالقوة ضمن نظام بلاغي يصحّ أن نطلق عليه الخطاب. و كلّ هذا يجعلنا نجزم بأنّ كتابات الرحالة الأوروبيين حول الشرق ليست «مصدرا تاريخياً بريئا»، - كما يقرّ بذلك إدوارد سعيد، هذا الأخير الذي كانت له رؤيته الثاقبة في الاستشراق وأبعاده، أوليس هو القائل: الاستشراق هو "أسلوب تفكير يقوم على التمييز الوجودي والمعرفي بين ما يسمى (الشرق) وبين ما يسمى في (معظم الأحيان) الغرب"²³، ولم يتوقف عند هذا بل راح يدعو إلى ضرورة فحص الخطاب الاستشراقي لتتمكن من فهم أبعاده وذلك حين قال: "إننا ما لم نفحص الاستشراق باعتبارها لونا من ألوان الخطاب فلن نتمكن مطلقا من تفهم المبحث البالغ الانتظام الذي مكّن الثقافة الأوروبية من تدبير أمور الشرق"²⁴ والتسلط عليه، من أجل الهيمنة عليه وإعادة بنائه.

²⁵ - الرحلة إلى الشرق، ص9.

²⁶ - قباني، رنا : أساطير أوروبا عن الشرق، تر. صباح قباني، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، دمشق - سوريا، ط1، 1988، ص 22.

²⁷ - المرجع نفسه، ص25.

²⁸ - Redouane, joelle: L'Orient arabe vu par les voyageurs anglais, Office des Publications Universitaires, Alger, 1988, p139.

²² - نفسه، ص 6.

²³ - سعيد، إدوارد : الاستشراق، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت - لبنان، ط1، 2001، ص46.

²⁴ - نفسه، نفسها.

و ركحا على ما تقدم فإنّ المتأمل في كتابات القرن التاسع عشر في مجال الرحلة يجد أنّها كانت محاولة لفحص المادة المجموعة عن الشرق وامتحان الصورة المشكّلة منها بوساطة الرحلة، هذا الخطاب الذي "منح لمفهوم (الرحلة إلى الشرق)**" بعدا دلاليًا جديدا، وهو المعنى الإيديولوجي الذي يتضايّف مع المعنى الأنتروبولوجي³³، وهو ما يجعلنا نُجزم بالفكرة التي أسلفنا تأكّيدها في موضع سابق، والتي مُفادها أنّ "أدب الرحلات هو نوع من المعاينة والفحص والاختبار أو الإخبار والتقصّي"³⁴، وهذا لا يعني البتة غياب جانب المتخيل تماما في النص الرحلي، بل إنّ فيه فصلاّت متخيلة ظلت "تؤدي (...). منه دور شاهد العدل، ومن هنا تتأتّى خطورتها ولاسيما حين تتسم هذه الرحلات بالعنوية والسطحية، والتحيز***؛ لئلاّ تشكل عنصرا من عناصر رد الفعل الدفاعي لدى بعض الثقافات بإزاء ثقافات أخرى"³⁵.

** - الرحلة إلى الشرق، عبارة لم تظهر في الأدب الفرنسي إلاّ في العام 1853 على يد لامارتين في كتابه (ذكريات، انطباعات، أفكار، ومشاهد مقدمة من خلال (رحلة إلى الشرق)، وفي تتبع جميل لكلود برشيه في كتابه (انطولوجيا الرحلات إلى الشرق؛ إذ ذكر أنّ هذا المصطلح كان ترجمة عن كتاب صادر في العام 1772 للرحالة الإنجليزي بيكوك كان قد أنجزه في الفترة الممتدة ما بين 1734-1754، وقد أخذ قبل لامارتين الرحلة فونتانيه في العام 1829، ولكنه أخذ تحت اسم الجمع، ولم يأخذ العنوان شكله بالمفرد إلاّ على يد لامارتين، وهكذا تحول هذا العنوان إلى اسم عام وجامع، يعرف الشرق بجميع المناطق الواقعة تحت الحكم العثماني، من ضمنها بلاد الإغريق باستثناء بلاد ما بين النهرين ومنطقة البلقان. راجع: الرحلة إلى الشرق، م.س.، ص ص 14-15.

³³ - الرحلة إلى الشرق، ص 14

³⁴ - المرجع نفسه، ص 8.

*** - نعتقد جازمين أنّ هذا التحيز لا يُردّ إلى شخصية وخصال الرحالة فقط، وإنما إلى توجهه الفكري أيضاً.

³⁵ - الرحلة إلى الشرق، ص 8.

الشرقي، و"لكن هذا لا يعني أنّ جميع الرحالة الذين تحدّثوا عن الشرق أساءوا تصويره، وإنما يعني أنّ سوء التصوير هو الذي طغى، وهو الذي أسرّ خيال عامة الناس في الغرب"²⁹.

ومما تقدم يمكن عدّ "قصص الرحلات جزءاً من الاستشراق الذي حرّض على قيام الإمبراطورية"³⁰ بالقوة وبالفعل هذا من جهة، ومن جهة أخرى من خلال هذه الرحلات "تتضح سمة الاستشراق كنظام من القول له قواعده وقدرته على إنتاج المعرفة التي كثيرا ما تستمد مصداقيتها من القواعد التي تحكمها وليس من مطابقة تلك المعرفة لما هو حاصل أو واقع"³¹. وعليه وبكثير من الثقة نضمّ صوتنا إلى صوت صاحبي كتاب (دليل الناقد الأدبي) حين يقولان، مبيّنين مدى نجاعة ما قدّمه كتاب الاستشراق لإدوارد سعيد من الفهم العميق للظاهرة الاستشراقية: "وعلى الرغم من كثير من النقد الوجيه أحيانا، الذي قوبل به كتاب سعيد فإنّ الكتاب قد غير بالفعل النظرة التي كانت سائدة إلى الاستشراق، وذلك بإبرازه للنسق المعرفي الذي يحكمه، كما هو الحال في خطابات كثيرة أخرى. ومن أبرز معالم هذا النسق كما بينه سعيد هو أنّ الاستشراق أسلوب معين في الثقافة الغربية في التحدث عن الشرق والبحث فيه وتوظيفه، أسلوب يعكس الثقافة المنتجة أكثر مما يعكس موضوع التأمل أو التخيل أو البحث وهو الشرق"³².

²⁹ - قباني، رنا: المرجع السابق، ص 26.

³⁰ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

³¹ - دليل الناقد الأدبي، م.س.، ص 25.

³² - المرجع نفسه، ص 25.

وختلاصة القول :

وعليه فرحلات الأدباء الفرنسيين إلى البلاد الإسلامية في القرن التاسع عشر يمكننا أن نتميز فيها قضيتين هامتين: الأولى: أنه نتاج قام به بشكل حصري أدباء رومانتيكيون كبار، أمثال لامارتين، نرفال، غوتيه، فلوير، ديديه، ماكسمجوكومب، وقد أثر الطابع البلاغي والتخييلي في عملية النقل تأثيراً مباشراً، كما يمكننا التمييز بين رحلتين مثل رحلة فلوير ورحلة لامارتين على أساس العلاقة بين كلٍ منهما من جهة، وبين الرومانتيكية كمدرسة أدبية لها وجهتها الأيديولوجية فلسفية من جهة أخرى، ففي الوقت الذي كان ينهل لامارتين فيه من الرومانتيكية كل ما يهينه للنظر إلى الشرق كوجهة سفر لها خصوصياتها، كانت رحلة فلوير تتأسس على قاعدة عدوانية بإزاء الشرق؛ لأنه كان يريد أن يُشفى من أمراضه الرومانتيكية، والنقطة الأخرى التي يجدر بنا الوقوف عندها، هي أننا لا يمكننا فصل الرحلات عن طابع العلاقات المتأزم بين الشرق والغرب في القرن التاسع عشر، وتأثير المباحكات الدينية والأطماع الاستعمارية، وسياسة التبشير الديني، ولذلك نجد هذه الرحلات تحتوي على الكثير من الانطباعات السياسية والأحكام التقييمية التي تفتقر في أغلب الأحيان إلى الحس الإثنوغرافي، نتيجة لتصاعد الشعور الغربي بالتمركز العرقي والديني⁴⁰.

ورغم كل ذلك فإنّ الشرق ظل بالنسبة للامارتين وديديه وغوتيه وفلوير أرض التوراة والضياء، يلجؤون إليه بحثاً عن الراحة والنسيان.

- (المسار من باريس إلى أورشليم) هو كتاب

لفرانسوا دي شاتوبريان [1768-1847]

إنه من المؤكد بأنّ الشرق في تاريخ الثقافة الغربية التي كانت الرحلة إحدى أوعيتها ظلّ "تكويناً هلامياً سواء على المستوى الجغرافي أو الثقافي، تكويناً يعكس متغيرات الثقافة الغربية وإن ظلت له ثوابت أو أنماط تفكير وتخييل مستقرة. ومن أبرز هذه الثوابت أنّ الشرق نقيض الغرب سواء بالمعنى السلبي، وهو الغالب، أو الإيجابي، كما في تصور الشرق جنة أرضية للحلم عند الرومانسيين غالباً.³⁶

- دوافع الارتحال إلى مدينة القدس وصورها في كتابات الرحالة شاتوبريان ولامارتين :

إذا كان الكاتب الفرنسي الشهير مونتاني [1533-1592] يرى في الرحلة "فرصة لحك وصقل عقله مع عقل الآخرين"³⁷، فإلى أي مدى كان إيمان شاتوبريان ولامارتين بهذه المقولة؟ التي تنم عن قناعة مطلقة بأنّ أدب الرحلات هو "رواية التفاعل بين الذات والآخر"³⁸، بل و ماهي دوافع كلٍ منهما في الارتحال إلى الشرق عامة وإلى المناطق المقدسة منه على وجه الخصوص؟

لا ريب أنّ "الرحلات إلى الشرق احتلت مكانة مميزة في القرن التاسع عشر ليس فقط بسبب حملة نابليون الشهيرة على مصر ولا نظراً للسهولة الجديدة التي أتاحتها تطور المواصلات البحرية فحسب، بل مرّ ذلك أيضاً إلى الروح الرومنطقية التي سيطرت بشكل خاص على النصف الأول من ذلك القرن"³⁹.

³⁶- دليل الناقد الأدبي، م.س.، ص 25.

³⁷- أدب الرحلات، م.س.، ص 100.

³⁸- المرجع نفسه، ص 71.

³⁹- دي لا مارتين، ألفونس : م.س.، ص 458 .

⁴⁰- جوردا، بيير : م.س.، ص ص 8-9 .

عنه الرحلات التي تلتها، و لعل رحلة لامارتين واحدة منها، يقول في ذلك لا مارتين نفسه: "إنّ هذا الكاتب الكبير والشاعر العظيم لم يفعل سوى المرور بأرض المعجزات هذه، لكنه طبع وإلى الأبد أثر العبقريّة فوق هذا الغبار الذي حركته القرون المتعاقبة العديدة، لقد ذهب إلى القدس حاجا وفارسا، وهو يحمل بين يديه الكتاب المقدس والإنجيل والحروب الصليبية"⁴³، وهو ما يجعلنا نؤكد أن شاتوبريان في رحلته إلى القدس كان يبحث عن عبقرية دينية، وتفوقه العرقي وأنانيته الشاعرة المتسامية، أوليس هو القائل وهو قاصد الشرق متمثلا في ذهنه روح المقاتلين الصليبيين القدامى: "ربما أكون الفرنسي الأخير الذي يغادر فرنسا متوجها إلى الأراضي المقدسة بأفكار وأهداف ومشاعر الحجاج القدامى"⁴⁴، لقد حقق أخيرا حلم صباه برحلته إلى الشرق فأنظره وهو يقول ونبرات السعادة تقطر من كل حرف هو مردده: "لقد طفت، ودرت دورة كاملة حول البحر المتوسط من دون مخاطر تُذكر، ومثل القدامى زرت اسبرطة. مررت بأثينا، حللت بالقدس، رسوت بالإسكندرية، تفرجت على آثار قرطاج. وأخيرا استسلمت لجمال قصر الحمراء في الأندلس"⁴⁵.

لقد خرج حاملا بين جنباته "أنا متضخمة لم يكن ليخفيها (...)", حتى إنّ الكثير من معاصريه انتقدوه لأنانيتها المفرطة التي لم تكن إلا أيقونة لأنا مركزية تعبر عنها الحضارة الأوروبية في القرن التاسع عشر، وقد ألبسها شاتوبريان

⁴³ دي لامارتين، ألفونس : مقدمة الطبعة الأولى من كتاب رحلة إلى الشرق، ص11.

⁴⁴ -Chateaubriand, Itinéraire de Paris à Jérusalem et de Jérusalem à Paris ,Exporté de Wiki source le 30/04/2016 ,édition électronique [\[http://fr.wikisource.org\]](http://fr.wikisource.org)

⁴⁵ -Ibidem .

صدر لأول مرة في العام 1811، وصدرت الطبعة الثانية منه 1826 صدرها بندااء يطلب فيه من فرنسا احتلال الشرق والدخول في الحرب ضد تركيا ومصر. سعى من خلال هذا الكتاب إلى رصد جلّ ملاحظاته وانطباعاته من رحلة كان قد قام بها سنة 1806 إلى الشرق الأدنى، إيمانا منه بأنّ هذه المنطقة من العالم هي مهد الأديان السماوية، حيث "كل حجر، وكل نهر وكل بقعة صحراوية تذكّر بالأديان التي مرت بها وأصحابها"، يقول معرّفا بمساره "إنّ مساري هذا إنما هو مسار رجل انطلق أصلا إلى حيث يرى السماء والأرض والماء... ثم عاد إلى دياره وفي رأسه بعض الصور الجديدة، وفي فؤاده بعض المشاعر الإضافية عن الشرق والقدس"، وهو لم يخرج قاصدا الشرق كما تروي الروايات "بهدف أن يعثر على الألوان المحلية التي تناسب كتاب (الشهداء) فقط، لكنه في الواقع كان بدافع الاستسلام لتجربة الشرق التي حفّزتها رحلات تافرينيه⁴¹ وفولني⁴².

ولئن كانت هناك رحلات إلى الشرق بعد شاتوبريان، فإنّ رحلته شكلت نقطة الوصل في تدشين نظام جديد من الصلات لأنّها حققت قطيعة مع الرحلات السابقة لها، كما أنّها كانت الباعث والمؤثر الذي تمظهرت

⁴¹ - جان بانستتا فرينيه، هو رحلة فرنسي قام منذ القرن السابع عشر برحلته راويا أسفاره الستة في تركيا وبلاد فارس والهند، التي امتدت على أربعين عاماً . مهّدت رحلاته لتلك النظرة النسبية التي تعيد النظر في أفكار الغربيين المكتسبة عن الإنسان المشرقي . راجع مختارات من كتاب رحلة إلى الشرق، ج2، ص 458.

⁴² - قسطنطين فرانسوا فولني قام برحلة إلى مصر وسوريا عام 1873، وهو لم يخرج للشرق بدافع الفضول فقط بل لاستطلاع أحوال المنطقة، متوخيا سرد الوقائع محافظا على الروح التي طبعه لدى بحثها وحبّه المجرد للحقيقة مؤكدا على أنّ الرحلات هي ملك للتاريخ لا الرواية. راجع: المرجع السابق، الصفحة نفسها .

أي حرية أو تطور"⁴⁹. وهنا نفتح قوسا لنقول لقد كانت الحروب الصليبية في نظره مبررة جدا "فهي لم تكن أعمالا جنوبية، لا من حيث مبدئها، ولا من حيث نتيجتها، فالأمر لا يتعلق فقط بتحرير القبر المقدس، بل بمعرفة من يفوز في هذا العالم، هل العقيدة المعادية للحضارة والمؤيدة بنظامها للجهل والاستبداد والاستعباد، أم العقيدة التي أحييت في نفوس المحدثين عبقرية علم المحدثين وألغت العبودية"⁵⁰. وكل هذا لا ينمّ أبداً على أن الكاتب كان متسامحاً، بل كان يكنّ عداً كبيراً للإسلام كدين خاتم وللمسلمين كمعتنقين، هؤلاء الذين لم يكن يراهم بشراً أصلاً "وإنما قطيعاً يسوسه إمام ويذبحه انكشاري".

والكاتب الشاعر عند حديثه عن القدس راح يسرد تاريخ المدينة محللاً مؤلف لوتاس (القدس المحررة) مستشهداً منه بمقاطع طويلة، مركزاً في حديثه ووصفه على المعالم المسيحية فيها ككنيسة القيامة وما تبعها من كنائس، والقبر المقدس، ووادي رام، والنبع الذي ظهرت فوقه النجمة للمجوس، وشجرة زيتون النبي إيليا..... إلخ. والكاتب في وقوفه على جل المعالم المسيحية كان يبدو مستمتعاً غاية المتعة بتذكر أحداث بعينها من جهة، و واقفاً على الأطلال لتصور الماضي و أخذ العبر من جهة ثانية. يقول مبيناً طريقتة في تصويره للمشاهد التي أعجب بها "و لأتجنب إعادة تصوير لوحة قد أتقن رسمها، ارتأيت أن أقتبس من كتابات من سبقني من رحالة، مضيفاً عليها ملاحظاتي

مسحة مسيحية راح يبرر من خلالها كل سطوة استعمارية استباححت ديار الإسلام، بحجة أنّ المسيحية تمتلك الأهلية لتحضير شعوب تنتمي إلى دين لا يحث المؤمنين على دفع الحضارة نحو الأمام، ولا يعلمهم أن يعنوا بالحرية. دين أنتج (أناساً يمضون أيامهم بالبطش بالناس أو الاستراحة على سجادة بين النسوة والعطور)"⁴⁶، ولعل هذه العبارة الأخيرة التي هي في الأصل من شاتوبريان جاءت حاملة لصورة سلبية عن الآخر، صورة متضمنة للكثير من العداية والحقد، وهي نفس الصورة التي حملتها عبارته "منذ شهرين كنت قد غادرت عاصمة الشعوب المتحضرة (باريس) لأحطّ رحالي في عاصمة الشعوب المتوحشة"⁴⁷. وهو وإن لم يشر إلى أي آية من القرآن، إلا أنه يكتفي ببعض التوصيفات العامة الرائجة وذلك حين يقول: "لا نجد في كتاب محمد أي مبدأ حضاري أو أي تعليم يهدّب النفس. فهذا الكتاب لا يُحْفَظ على كره الظلم، ولا على التعلق بالحرية"⁴⁸، وهو يرى أنّ النص القرآني يحثّ معتنقيه على الحرب والقتل، وإخضاع الناس، حتى إذا استتب لهم الأمر أمضوا أيامهم بالبذخ والفجور، وقد بالغ الكاتب في وصف الظلم والاضطهاد الواقع على مسيحي الشرق، ولم يتوقف عند هذا الحد بل راح يؤكد أنّ "التسلط السياسي والفوضى القائمان في الشرق ناتجان عن مؤسسات فاسدة أساسها تركيبة ذهنية متخلفة أرساها الدين الاسلامي، وهي بطبيعتها تتعارض مع

⁴⁹ - مختصر كتاب (النظرة إلى الآخر في الخطاب الغربي، جان جيبور، دار النهار، ط1، 2001،)، متاح على الشبكة www.asharqalarabi.org.uk

⁵⁰ - بن غنيسة، نصر الدين : حفريات في استيهامات المخيال الغربي، ص

⁴⁶ - بن غنيسة، نصر الدين : حفريات في استيهامات المخيال الغربي، مجلة العلوم الانسانية، جامعة محمد خيضر - بسكرة، العددان 30-31، ماي 2013، ص 307. ش

⁴⁷ - Chateaubriand, Itinéraire de Paris à Jérusalem [\[http://fr.wikisource.org/\]](http://fr.wikisource.org/)

⁴⁸ - Ibidem.

يقول لا مارتين في مقدمة كتابه (رحلة إلى الشرق) لقد ذهب شاتوبريان إلى القدس "حاجا وفارسا، وهو يحمل بين يديه الكتاب المقدس والإنجيل والحروب الصليبية. أما أنا فقد مررت بها فقط كشاعر وفيلسوف، وعدتُ منها وأنا أحمل الكثير من الانطباعات العميقة في قلبي والتعاليم الرفيعة والرهيبية في فكري"⁵²، ونحن إذا علمنا كيف ترى هذا الكاثوليكي المتسامح أدركنا وعن كتب دوافع شد الرحال إلى هذا الشرق عامة والقدس على وجه الخصوص يقول في الصفحات الأولى من رحلته: "تلقت أُمي من والدتها وهي على فراش الموت نسخة من الكتاب المقدس الذي طُبع في مدينة (روايومون)، وعلمتني فيه القراءة وأنا طفل صغير. وكان في هذا الكتاب صور قديسين في كل الصفحات. فها هي سارة، وها هو طوبيا وملاكه، ويوسف أو صموئيل، وكانت بالأخص مشاهد جميلة من مجتمع أبوي اختلطت فيها الطبيعة العننية والبسيطة للشرق بكل مشاهد الحياة البسيطة والرائعة للبشر الأوائل. وعندما كنت أنجح في تلاوة درسي وفي قراءة نصف صفحة من التاريخ المقدس تقريباً دون أخطاء، كانت أُمي تكافئني فتكشف الرسم وتُقي الكتاب مفتوحاً على ركبتيها، وتسمح لي بتأمله وهي تشرحه لي (...). إنّ رؤية تلك الصور والشروحات والتعليقات الشعرية التي كانت تقوم بها أُمي، كانت تمنحني منذ نعومة أظفاري ميولا ونزعات إنجيلية. وللاتقال من حب الأشياء إلى الرغبة في رؤية الأماكن التي حدثت فيها، لم يكن هناك إلا خطوة واحدة. كنت أتحرق منذ أن كنت في الثامنة من عمري إلى زيارة تلك الجبال التي تجلى فيها الرب، وتلك الصحاري حيث جاءت الملائكة لترشد هاجر إلى مكان النبع الخفي الذي أنعش ابنها المسكين المنبوذ الذي كاد يقتله العطش؛

الخاصة"⁵¹، ومن هؤلاء الذين اعتمد عليهم بالإضافة إلى (لوتاس) (دوشاي) (1621)، الذي أرسل إلى فلسطين من قبل لويس الثالث عشر، وقد رأى شاتوبريان أن كتاباته تستحق الاهتمام للأسباب الآتية:

1 - تحمس الأتراك لمرافقة هذا السفير بأنفسهم خلال زيارته لأورشليم؛ إذ لو شاء أن يدخل مسجد المعبد لسمّح له.

2 - أسلوبه في الكتابة واضح و دقيق جدا، حتى أن بول لوكاس نقل عنه حرفيا دون إشعار بالاقتباس، كما اعتاد أن يفعل.

3 - و السبب الرئيسي أن أنفيل درس خريطة دوشاي في أطروحة قد تكون هي أبرز أعمال هذا الجغرافي.

وقد اقتبس منه وصف معالم كنيسة المدفن المقدس، و أضاف إليها بعض الملاحظات. على اقتباساته في كثير من الأحيان تتعدى التسع صفحات.

وربما هذا ما جعل كتابه يأتي في سرد محبوبك بشكل متين ومقاربة تاريخية جادة لكل المعالم التي وقعت عليها عينه، وهو ما يجعلنا نقول أن شاتوبريان فتح الطريق إلى الرؤية المعاصرة لأدب الرحلات.

(الرحلة إلى الشرق) للشاعر والدبلوماسي ألفونس دي لا مارتين [1790-1869]

- دوافع الارتحال إلى القدس:

⁵¹- Chateaubriand, Itinéraire de Paris à Jérusalem [http://fr.wikisource.org/]

⁵²- لامارتين: م.س.، ص11.

- القدس في (رحلة إلى الشرق):

يقول لامارتين واصفا هذا الكتاب بتواضع كبير: "إنّ هذه الملاحظات لا تتعلق في مجملها بما هو تصويري، إنّها النظرة المكتوبة، نظرة مسافر يجلس فوق جمل، أو فوق جسر باخرة، ويرى المناظر تحرب أمامه، ولكي يتذكرها في الغد، يرسم بعض ضربات قلم غير ملون على دفتر مذكراته، وقد ينسى المسافر أحيانا المشهد المحيط، فينطوي على نفسه، ويستمتع إلى نفسه وهو يفكر، وهو يستمتع أو وهو يتألم؛ فيحفر عندئذٍ كلمة من انطباعاته البعيدة، لكي لا تحمل رياح المحيط أو الصحراء حياته بأكملها، ولكي يبقى لديه أثر من زمن آخر، حين يعود إلى منزله، ويحاول بعث ماضٍ ميّت، ونشر الدفء في ذكريات باردة، ويعيد ربط حلقات حياة سحقتها الأحداث في مواضع عدة. ها هي ملاحظاتي: إنّها دون فائدة ولا تطمح إلى النجاح، ولكنها بالمقابل تمتلك الحق في طلب الكثير من التسامح"⁵⁶. هذه الصفة التي كثيرا ما دعا إليها لامارتين، بل و طلب أن تكون صفة ملازمة للمسافر، والفيلسوف والشاعر؛ لأنّها الوحيد القادرة على جبر الإنسان على التراجع والتمعن في قناعاته البديهية، وعلى صياغة قناعات جديدة.

وعلى ذكر التسامح تحضرنى فكرة ساقها لامارتين في كتابه عندما رأى مسجد عمر (الصخرة) مُفادها أنّ لما رأى من استعدادات حاكم سرايا القدس في تسهيل حركته داخل القدس، عبّر عن رغبته لا في الدخول إلى المسجد لأنّه يعلم أنّ مثل هذا المسعى يخالف عادات البلاد بل في تأمله من الخارج فأجابه، إن أمرت بذلك سيفتح كل شيء أمامك رغم أن ذلك سيثير حفاظة جميع السكان لاعتقادهم

يا لها من أحرّ تندفق من الجنة الأرضية، ويا لها من سماء تُرى فيها الملائكة وهي تصعد وتهبط فوق سلّم يعقوب. إنّ هذه الرغبة لم تنطفئ قط في داخلي، بدأت أحلم منذ ذلك الوقت بالقيام برحلة إلى الشرق، وكنت في قرارة نفسي أقوم بعمل كبير"⁵³، لقد كان يتوق أن تكون رحلته تلك ملحمة دينية كبيرة تكوّن أماكنها الجميلة المشهد الرئيسي، بل وتجعل من العقول التي تشك، والتي تشعر بالارتباك الديني تجد في هذه الملحمة الحلول والسكينة المناسبة، وفي النهاية كان عليه أن يستلهم منها ألوان قصيدته التي ينوي كتابتها، لاسيما وهو يؤمن بأنّ الحياة قصيدة كبيرة، تماما كما هو الحب بالنسبة إلى قلبه⁵⁴.

إذاً، فللامارتين كان يبحث عن آثار الله المرسومة على الشرق، وكل ذلك جعله يتحرّق، وهو في مارسيليا، للإبحار على محيط الرمل، ليُحيي ذكريات شبابه المسيحية، ويتمتع برؤية تلك الجبال التي كان يهبط فيها الرب (على زعمهم)، وتلك الصحاري التي كانت تؤمها الملائكة، لتُظهر لها حرّ النبع الخفي.

وهو وإن لم يصرّح بأنّ رحلته هذه جاءت لتعارض رحلة شاتوبريان إلى ذات الأماكن تقريبا، إلا أن في كتابه من العبارات التي تؤكد ذلك من مثل قوله: "يبدو لي أنّ العقول التي تشك، والتي تشعر بالارتباك الديني، سوف تجد في هذه الملحمة الحلول والسكينة المناسبة لها"⁵⁵، وما يزيدنا يقينا في ذلك أنّ شاتوبريان عرف عنه تحامله على الإسلام مثل فولتير و مونتسكيو وفولناري، بل ودعوته إلى احتلال الشرق في أكثر من موضع كما أسلفنا.

⁵³ - المرجع نفسه، ص ص15-16.

⁵⁴ - المرجع نفسه، ص16.

⁵⁵ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

أمام كل ما تراه من جمال ونبل وأيضا هذه الكتابة الرومنطيقية اللذيذة التي تلون كل المشاهد والانفعالات بظلالها اللطيفة والمؤثرة في آن⁵⁹ خلق لامارتين "لأدب الرحلات بعده الجمالي التصويري والإنساني والوجداني"⁶⁰ مما جعل كتابه يثير إعجاب كتّاب عصره من أمثال الرحالة والأديب جون كاري الذي زار سوريا وفلسطين ولبنان قبل لامارتين بسنوات قليلة، والذي قال معترفا بما قدّمه لامارتين: "لا بد من الاعتراف أنّ مذكرات رحلته هي من أجود ما لدينا، عن سوريا ولبنان وفلسطين. يصف الرجل المواقع وصفاً أميناً ولا أخال أنّ سائحا حتى اليوم ارتاد الشرق بمثل هذا التحمس والاهتمام"⁶¹.

و ركحا على ما تقدم فإنّ صورة القدس في عيون (شاتوبريان ولامارتين) هي صورة تعبق بروح التاريخ العريق للمكان تارة، ومفعمة بروح التأمل والشعر والوحدة تارة أخرى، وأحيانا تتجلى صورة القدس غارقة في السطحية والعموية والتحيز مشكلة بذلك عنصرا من عناصر رد الفعل الدفاعي، ومهما يكن من أمر فإنها في كلّ الحالات الملاذ الوحيد الذي يستكين إليه القلب قبل أن يتحطّم.

و خلاصة القول:

في ختام هذه الورقة نخطّ الرحال عند

مجموعة من النتائج لعل أهمها:

- لم تكن رحلات الأدباء الفرنسيين إلى البلاد الإسلامية في واقع الأمر هي الوحيدة في التاريخ، وإنما كان على الدوام

أنّ كل ما يطلبه المسيحي من الله داخل الصخرة سيناله، ولا يشكون في أنّ أي مسيحي سيطلب إلى الله أن يقوّض دين النبي محمد ويستأصل شأفة المسلمين. فرد عليه لامارتين: "لو وُجدت داخل مسجد الصخرة، فلن أصلي لاستئصال شأفة أي شعب من الشعوب، وإنما لاستنارة وسعادة جميع أبناء الله"⁵⁷. فلا ريب إذاً، أن نقول إنّ الشاعر الرحالة كان ينطلق في آرائه وتأملاته من خلفية روحانية مشبعة بوجدانية مسيحية؛ إنها خلفية منفتحة على الآخر ومنسجمة مع قناعاتها، وهكذا يأتي وصفه للمناظر والناس مقرونا دائما بالتأمل الفلسفي والديني والسياسي والميتافيزيقي، وربما هنا تكمن الإضافة الجديدة للامارتين. فالكتاب جاء مطعما بلحظات صافية من التأمل الذي تكتنفه الكتابة الرومنطيقية يقول واصفا شوارع القدس: "لن أتكلّم على شوارع القدس التي وصفها مرافقي في الرحلة. سأكتفم في داخلي كلّ انطباعاتي الذاتية، لم تكن لدي أدنى حاجة لكتابتها وهي أعمق من أن تُمحي من ذاكرتي، لكن إذا وجدت في العالم أمكنة قادرة على إيقاظ كل ما يختلج به القلب من ألم وحزن وحداد، واستجابة لألم داخلي نفسي يكاد يكون فيزيائيا فإنّها الأمكنة التي زرّتها. كل خطوة تقوم بها تدوّي في أعماق روحك وكأنتها أصداء النحيب، كل نظرة تنظرها ترسم أمامك صرحا من الحزن المقدس الذي يستوعب أحزاننا الشخصية ويضمها إلى عذابات البشرية المرّة التي كويدت وكفّر عنها وكرست هنا في هذا المكان بالذات"⁵⁸. بمثل هذا الكلام رسم المناظر وقصّر المسافات بين إنسان وآخر لتعزيز أواصر الأخوة الإنسانية، أجل بمثل هذا "الانفعال المحتفل بالحياة، انفعال النفس المفعمة السخية

⁵⁹ - طوق، ماري : تمهيد الجزء الثاني من كتاب (مختارات من كتاب

رحلة إلى الشرق)، ص 463.

⁶⁰ - نفسه، نفسها .

⁶¹ - نفسه، نفسها .

⁵⁷ - لامارتين :مختارات من كتاب رحلة إلى الشرق، ج1، ص ص 326-327.

⁵⁸ - نفسه، ج2، ص 523.

كانت عليه الرحلة قبل صدور كتاب شاتوبريان (الطريق من باريس إلى أورشليم)، وتختلف عنها اختلافاً بيناً.

- قائمة المراجع المعتمدة :

- 1- الأسود ، السيد : الاستشراق الجديد – جدلية الثنائية الثقافية بين الغرب /الشرق والغرب /الاسلام ، مجلة ثقافات ، تصدر عن جامعة البحرين ، 2008.
- 2-- بن غنيسة ، نصر الدين : حفريات في استيهامات المخيال الغربي ، مجلة العلوم الانسانية ، جامعة محمد خيضر – بسكرة ، العددان 30-31 ، ماي 2013.
- 3- مختصر كتاب (النظرة إلى الآخر في الخطاب الغربي ، جان جبور ، دار النهار ، ط1، 2001،) ، متاح على الشبكة www.asharqalarabi.org.uk
- 4- - جوردا ، بيير : الرحلة إلى الشرق –رحلة الأدباء الفرنسيين إلى البلاد الاسلامية ، تر. مي عبد الكريم وعلى بدر ، الأهالي للتوزيع ، دمشق – سوريا ، ط1، 2000 .
- 5- حليفي ، شعيب : الرحلة في الأدب العربي (التجنيس ، آليات الكتابة ، خطاب المتخيّل) ، دار القرويين ، الدار البيضاء- المغرب ط2، 2003.
- 6 - الرويلي ، ميجان ، البازعي ، سعد : دليل الناقد الأدبي ، فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية ، المملكة العربية السعودية ، ط1، 1995.
- 7- دي لامارتين ، ألفونسو : كتاب رحلة إلى الشرق ، تر. جمال شحيد- ماري طوق ، منشورات دار نشر هاشيت وشركائها –باريس ، ط1 ، 2006 .
- 8- الساوري ، بوشعيب : الرحلة والنسق – دراسة في إنتاج النص الرحلي ، دار الثقافة ، الدار البيضاء – المغرب ، ط1، 2007.
- 9- سعيد ، إدوارد : الاستشراق ، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت – لبنان ، ط1، 2001.

رحالة من مختلف البلدان والأقاليم وعلى مدى التاريخ يجوبون أراضٍ شاسعة، ويقطعون مسافات بعيدة، من أجل تقديم معرفة ناجزة عن الآخر، وطرح فكرة التنوع من النواحي الثقافية واللغوية والسلافية والدينية بين مختلف الحضارات، وربما فاقت الكثير من الحضارات الحضارة الأوروبية في هذا الميدان.

- ضخامة المدونة التي أنتجها الرحالة الأوروبيون.

- شكّل القرن التاسع عشر قرن الرحلات بلا منازع، بل إنّه القرن الذي ضم أكبر عدد من الإنتاج الثقافي والأدبي الذي يتركز بالأساس على يوميات الرحلة ومخاطرها، وإن كانت هناك رحلات سبقت هذا الزمن بكثير إلا أنها لم تكن معبأة بهذا القدر من الإنتاج المكتوب لأسباب.

- إنّ الشرق في الخيال الغربي لا ينتمي إلى الشرق، وإنما إلى الغرب، وأنّ الشرق غير موجود إلّا في عقول الغربيين، وقد أعيد إنتاجه داخل الثقافة الغربية.

- شكّل خطاب الرحلة معرفة خابرة بالشعوب لها سلطتها في تكوين صورة نمطية داخل الثقافة، وربما كانت لهذه الصورة من الفعالية والسريان بحيث تصبح سلطة شرعية تقوم على أساسها أطروحات سياسية وتحليلات اجتماعية، ويكون لها القدرة على إبراز إنتاج ثقافي أو أن يتأسس عليها إنتاج ثقافي آخر.

- إنّ شاتوبريان هو نقطة الوصل في تدشين نظام جديد من الصلات لأنّ رحلته حققت قطيعة مع الرحلات السابقة لها، كما أنّها كانت الباعث والمؤثر الذي تمظهرت عنه الرحلات التي تلتها ورحلة لامارتين واحدة منها، أجل لقد كانت رحلات القرن التاسع عشر تتجاوز بمراحل عديدة ما

10- قباني ، رنا : أساطير أوروبا عن الشرق ، تر. صباح قباني ، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، دمشق - سوريا ، ط1، 1988.

11- عبيد ، محمد صابر : المغامرة الجمالية للنص القصصي ، عالم الكتب الحديث ، إربد - الأردن ، ط1، 2010.

12- محمد فهيم ، حسين : أدب الرحلات ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت ، العدد 138، 1989 .

13-Redouane, joelle : L'Orient arabe vu par les voyageurs anglais, Office des Publications Universitaires , Alger, 1988, p139.

14 -Chateaubriand ,Itineraire de Paris à Jérusalem et de Jérusalem à Paris ,Exporté de Wikisource le 30/04/2016 ,edition électronique [<http://fr.wikisource.org>]